دراسة وتحليل

الجواهري شاعر العراق

للأستاذ محمد رجب البيومي

— ٢ —

وتترك كارثة فلسطين لتنتقل إلى أذناب المستعمرين ...

ولا تكاد تخلو إحدى قصائد الشاعر من تجريح هؤلاء الأذناب والتشهير بهم ، بل إن إنجلترا الغادرة لم تنل من الشاعر ما ناله أذنابها المتزعمون ، وللجواهري وجهة نظره الصائبة في ذلك ، فالإنجليز مهما عصفوا بالشرق والإسلام ، وناهضوا الحريات بشتى الوسائل ، فهم يخدمون وطنهم بما يرونه من الأساليب الظالمة ، أما هؤلاء الأذناب الخائنون آثمون يشنون الحرب على بلادهم ، ويصادرون حرياتها وكرامتها في غير هوادة وإشفاق ، وقد يبلغ بك الأسف أشده إذ تجد الشاعر يقارن بين عهدين ، عهد برز فيه الاستعمار سافراً بوجهه الدميم ، يأمر وينهى ويسلب ويبز ، وعهد رجع فيه المستعمر إلى الوراء خطوة ، ووقف خلف ستار رقيق شفاف ينظر ما ينفذه صنائعه من تعسف وبطش ، وقد أخلى الطريق أمامهم فما استشعروا عاطفة نبيلة ، أو أحسوا بواجب قومي ، بل صالوا ذئابا نهمة جشعة ، وعاثوا أضعاف ما عاث المستعمر الظلوم ، وانطلقت الطامع من مكامنها تحتجر وتدخر وكانوا ستاراً لعورات المحتل ومثالبه ! حتى فضل الناس أن يعودوا إلى العهد الأول فيقابلوا الاحتلال وجها لوجه ! ! إذ رأوا بعد التجربة الأليمة أن افتراش القتاد أهون من افتراش الجمر ، فأضحت أمنيتهم أن يضعوا الصفاد بأيديهم من جديد ، وكانوا يشتكون الجدب والمحول فرأوا من هؤلاء المستوزرين جرادا يستأصل مابقي من الغصون والأوراق ، بدل أن يهطلوا غماما ينعش الأرض ويسقي الزرع ويضاعف الثرا وليس الجواهري سادرا في خياله ، بل إنه يضع في يد قارئه الحجة ، فيتساءل عن حرية النقد التي كانت تجد مجالها في عهد المستعمر ، فلا يرى لها صدى يتجاوب ، وينظر إلى السجون والمعتقلات ، فيراها تستقبل أضعاف من كانت تستقبلهم قبل ذلك ؟ فليذرف الشعر دمعه الغزير على الشرق الكليم ، وما يوجه إليه من طعنات قاتلات :

فكم في الشرق من بلد جريح ... تشكى لا الجروح ولا الضمادا
تشكى بغي مستبد بغيض ... تأبى أن يطاوعه انقيادا
فكانت حيلة أن يعتطيه ... رضيع لبانه فبغى وزادا
صدى للأجنبي ورب قفر ... أعاد صدى فسر بما أعادا
فكانوا منه في العورات سترا ... وكانوا فوق جمرته رمادا
تروى من مطامعه وأبقى ... لهم من سؤر ما ورد النقادا
وكان إذا تهضمه غريب ... أقام له القيامة والمعادا

فمزنا بالحضارة ساحليه ... فيا عجبا بحائطها اضطلاعا
توارثناه أبلج عبقريا ... ذلول المتن منبسطاً وساعا
يرى حافاته انفجرت عيوناً ... ورفت من جوانبه ضياعا
فأوذنا الكتاب الفخم حرفاً ... ولاذنا العصور الزهر ساعا (٢٢)
فقدنا معقد الآباء منه ... فكنا اليهم قد خلف السباعا (٢٣)
كأن الشمس مسلحة أصابت ... مفيفاً في ظيالسه شجاعا
تحجب عن بحار الله حتى ... إذا خطرت به نضت القناعا
وما رأت العيون أجل منها ... على أجزاء هيكله المطلاعا
فما كشروقها منه نعيما ... ولا كغروبها فيه متاعا

* * *

هذه عصماء شوقي التي قالها في تكريم الشاعر الكبير المرحوم عبد الحميد بك الرافعي وهي كما يراها القارئ الكريم نفحة خالدة من نفحات شاعر الشرق الخالد الذي لم يك شاعر مصر وحدها بل شاعر الانسانية برمتها وإن حدد هو فقال :

كان شعري الغناء في فرحة الشرق وكان البكاء في أحزانه ومثل شوقي يظل خالداً ماظلت الشموس تدور في أفلاكها . وفي العدد القادم إن شاء الله أقدم « شوقية أخرى »

٢٢) ساعا : جم ساعة
٢٣) اليهم : صغار الضأن

فأسلمه الغريب إلى قريب يسخره كما شاء اضطهادا
فبئس منى لمصفود ذليل لو ان يديه لم تضع الصفادا
وبئس مصير مفترشين جرا تحتهم لو افترشوا قتادا
وكانوا كالزروع شكت محولا فلما استمطرت قطرت جرادا

والشاعر ذو نظرة واعية فاحصة ، فهو ينظر إلى أعمال هؤلاء مدركا علتها وأسبابها ، وقد فطن إلى أن المدرسة الاستعمارية التى تخرج المستوزرين فى شتى الأمم العربية مدرسة واحدة متفقة المناهج والأساتذة ، حتى لكأنها توزع من هؤلاء نسخا مطبوعة على الشرق ، وفى سطور كل نسخة وظروفها ما يتفق ومبادئ الاحتلال وأغراضه ، ويتضح هذا بجلاء فى قصائد الشاعر ، فأنت ترى ما يمثل فى العراق نظير ما يمثل فى كل قطر شقيق . وسيعرض لنا الشاعر فى قرائده رواية محبوكة الأطراف ، منسقة الفصول ، وقد استمدت أبطالها وحوادثها مما يجرى فى الشرق الصريع من محن وأرزاء ، وهو بعد موفق فى مسرحيته ، بارع فى أدواره إلى حد كبير ، وسأشير لك الشريط لتجد فى الفصل الأول مالا يغيب عن ذهنك من ألاعيب الاستعمار فى كل قطر منكوب ، فأنت أمام مستوزر بغيض يعرف ما يكنه له الشعب من احتقار وازدراء ، فيقابل ذلك بالبطش المنيف ، والرقابة المليئة بالدسائس والمؤامرات ، فإذا أراد أن يختلق مايبرر فظائعه الآثمة لجأ إلى الدستور فأخضع نصوصه الفضفاضة إلى ما يريد من تعسف وإرهاق ، وأوجد الشروح المتكلفة ، والتفاسير المموهة ، مهورة بأسماء قانونية يثريها الذهب والمنصب والجاه ، فتحيل النهار ليلا والحق باطلا ، فإذا وجد الحجة القانونية الموهومة فى يده ، لجأ إلى المجلس النيابى فبدده فى طرفة عين ، وشرد أعضاءه الأحرار ، وأخذ يتحدث عن الحرية والمساواة والنزاهة ، وأجرى انتخابات باطلة زائفة ، وقد حشد لها رهطا من الأنصار والأنسباء ، فإن تجاوزهم فإلى فريق وصولى نفعى يروح مع الذئاب ويغدو مع الرعاة ، وبذلك يضمن الحجة الدستورية لبقائه فى المنصب ، دون أن يثقل أولياء نعمته من المستعمرين ، فيسوق إليهم ما يريدون ، وفوق ما يريدون ، وإن جر على بلده النكال والوبال ، هذا الفصل الموسف من الرواية يمثل فى كل قطر نكب بالاستعمار ، وإن الشاعر ليبرزه بوضوح إذ يقول على لسان أحد هؤلاء :

تخذت الورى بالظن أحمى خطاهو
ورحت لدقات القلوب عاسبا
ولم أر للاثم الفظيع ارتكبته
سوى أننى أديت للحكم واجبا
لجأت إلى الدستور فى كل شدة
أفسر منه ما أراه مناسبا
أحكم به الأهواء حقا وباطلا
وأخنق أنفاسا به ومواهبا
أهدم فيه مجلسا لا أريده
وإن ضم أحراراً غياراً أطايبا
وأبنى عليه مجلساً لى ثانيا
أضيع الكاكا عليه رواتبا
وأحشد فيه أصدقائى وأسرتى
كما ضم بيت أسرة وصواحبا

فإذا أنهى الفصل الأول من المسرحية أدار الشريط مرة ثانية . فطالعك فى الفصل الثانى بفريق من المستوزرين جذبهم الاستعمار إلى موائده ، وأظهر لهم العطف الزائد والحب الأكيد لبلادهم ، ورآهم أهلا لمخالفته على البأساء والضراء ، وأبرم معهم وثائق خادعة ، ظاهرها الرحمة ، وباطنها العذاب ، فطار بها الأغراء كل مطار ، ورجعوا إلى بلادهم يتشدقون بالعزة والحرية والاستقلال ! ويدعون أنهم أنقذوا الوطن من براثن الاستعمار ، إنقاذاً مشرفا يتفق وكرامة البلاد ، فإذا حزب الأمر وتغير الوضع الدولى ، تنكر الحليف لوثائقه ، وسخر بأذنابهم وحلفائه ، وأخذ يفسر النصوص تفسيراً مجحفا ظالما وطالب بحقه كصديق محالف فى الانتزاف والاستلاب ، وهنا فقط يتيقظ النائمون من رقدتهم فيردون فى الوثائق أغلالا خانقة ، وقيودا ثقيلة مرهقة ، فيتنصلون مما اقترفوه ، كولود تحدر من سفاح ، ويلصق كل فريق جريمته بأخيه ، ويعرف الجميع أن معاهدة الذئب للحمل ما كرة باغية ، ولاسبيل إلى مصادقة فريس يهدد صاحبه بالحق الذريع ، ثم يضحك الشاعر من غفلة هؤلاء الذين لايلمسون بدائه الأشياء فيتخبطون تخبط العشواء ، حتى يفجأهم الواقع

المرير بما لا ينتظرون ، هذا هو الفصل الثاني من الرواية السياسية المؤلمة وأظن القارىء قد تشوق إلى رؤيته فلينظره في هذه الأبيات

ووضع أمس كلهمو لواه ... به واليوم كلهمو لواحي
تنصل منه زورا صانعوه ... كمولود تحدر من سفاح
وذموا أنهم كانوا حكومة ... عليه في الغدر وفي الرواح
وتأريخ أريد لنا ارتجالا ... فكب كما أريد إلى افتضاح
شحنا دفتيه بمنمنات ... (كأحداق المها مرضى صحاح)
وغلفنا مظاهره حسانا ... مزخرفة على صور قباح
وأحلناه وهو ضريح شعب ... محل الوحي جاء من الضراح
تجرعه زعافا ثم نضفي ... عليه محاسن الشيم القراح
وربة صفقة عقدت فكانت ... كتحريم الطلاق على النكاح
تدبر في العواصم من مريب ... خبيث الذكر مطعون النواحي
يفوح الخبر منها في اختتام ... ويبدو البتر منها في افتتاح
ويستر نصها المسموه خزيا ... ومظلمة عن الغيد الملاح
وحلف است أردى من ذهول ... أعن جد ينفذ أم مزاح
لنا حق يرجى بالتماس ... وباطلهم ينفذ بالسلاح
ولست بعارف أبداً حليفاً ... يهدده حليف باكتساح

ثم يدور الشريط فيعرض لك المؤلف فصله الثالث والرابع والخامس حتى تنتهي المسرحية الأليمة بانتهاء ديوانه ، ولن أجد من نفسي الرغبة في تتبع الفصول وتحليلها تحليلا يرشد إلى كوامنها السياسية ، فهذا ما لا يغني عن قراءة ديوان الشاعر ، بجزءيه الكبيرين ، وبخاصة إذا كان الحديث عن هؤلاء الأرشاب يسجل أكثر قصائد الديوان ، سواء أكانت في الرثاء أو السياسة أو الاجتماع ، فهم القاسم المشترك في كل ما يجلب الكوارث على البلاد ، وقد وصفهم الشاعر بما لا يعد مبالغاً فيه ، وصور الحقد في نفوسهم . ورسم القطوب والعبوس والانقباض ، وجميع ما يلوح في وجوههم الانفعالات والغضون ، وتهكم بثرائهم المغتصب وجاههم الزائف وشهواتهم الجامحة العاصفة ، ونظر إلى أوسمتهم اللامعة نظرات أطفأت ما بها من تألق وبريق ، وحسبك أن يقول :

تداول هذا الحكم ناس لوائهم ... أرادوه طيفا في المنام فحيبوا
ورب وسام فوق صدر لو انه ... يجازى بحق كان بالنصل يضرب
نشاربه بين المخازي وراقه ... وسام عليها فهو بالخزي معجب

ولن نترك ما قاله الشاعر في أعداء الشعوب دون أن نشير إلى سخريته الهازئة من أمانيهم الخادعة ، وعجبه لغفلتهم عما يتهددهم من مصير أليم ، وترقبه الساعة الفاصلة التي تستيقظ فيها الشعوب النائمة على صوت لجب صاخب يبعث بها التوثب والطموح ، فتندفع هائجة إلى قلوع الخونة من الأذناب ، فتدوسهم بالنعال ، وتطؤهم بالأقدام ، وكم يؤلمك أن يتمنى الشاعر من هؤلاء أن يقتدوا بإنجلترا فيهادنوا المروءة والرجولة ، ويحاربوا العقائد والمذاهب ، وأنى يكون ذلك ، والشعب البريطاني يقظ متوثب ، يقدر زعماؤه كرامته وحيويته ، أما أذنابهم في الشرق فلا يعترفون بحمية وإباء ، فصادروا الحريات ، وكموا الأفواه ، فانطلق الجواهري يقض مضاجعهم ، ويكشف الأستار عن مثالبهم الفاضحة إذ قال :

ولقد وأى المستعمرون فرائسا ... منا وألفوا كلب صيد سالبا
فتعهدوه فراخ طوع بنانهم ... يبرون أنيابا له ومخالبا
مستأجرين يخربون بيوتهم ... ويكافأون على الخراب رواتبا
للشاربين دم الشباب لأنه ... لو نال من دمهم لكان الشاربا
والحاقدين على البلاد لأنهم ... حقرتهمو حقر السليب السالبا
ولأنها أبدا تدوس أفاعيا ... منهم تمج سمومها وعقاربا
شلت يد المستعمرين وفرضها ... هذي الملوق على الدماء ضرائبا
ألقى إليهم وزره فتحملوا ... أثقاله حمل الثياب مشاجبا
وأذابهم في الموبقات فأصبحوا ... منها جفورا في جفور ذائبا
يتمهل الباغي عواقب بغيه ... وتراهمو يستعجلون عواقبا
حتى كأن مصائرا محتومة ... سودا تنيلهمو متى ورقائبا

بغيم

محمد رجب البيومي